

المجاهدة عند الصوفية

عدنان علي الفراجي

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّ الله ورسوله محمد الأمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى كل من تبع طريقهم واستمسك بسنتهم إلى يوم الدين، وبعد.

فقد جاء الإسلام ليرتفع بالنفس البشرية إلى أرقى مدارجها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١). وقد رأيت أن أكتب بحثاً في المجاهدة عند الصوفية الصادقين، يتضمن مقدمة وتمهيداً وفصلين وملحقين.

أما التمهيد فيتناول ضرورة تخلص الإنسان من الصفات النفسية الذميمة وأن ذلك فرض عين في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا لا يتم بالأمني، بل لا بد من المجاهدة العملية، وطم النفس عن نزواتها الجامحة وشهواتها العارمة.

وأما الفصل الأول: فتضمن التعريف بالمجاهدة ومشروعيتها وآثارها ومراحلها، فأما التعريف بالمجاهدة فهو ما ذكره بعضهم بقوله: "الأصل في المجاهدة مخالفة الهوى، فيفطم نفسه عن المألوفات والشهوات واللذات، ويحملها على خلاف ما تهوى في عموم الأوقات".

أما أدلة المجاهدة من الكتاب والسنة - والتي تضمنها المبحث الثاني، فكثيرة نختار منها: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢). ومن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "المجاهد من جاهد نفسه في الله" وفي رواية لله.

١- سورة الشمس، الآية: ٧.

٢- سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

وأما المبحث الثالث من الفصل الأول فهو عن مجاهدة النفس وأثرها في تغيير الصفات المذمومة إلى محمودة، فالصفات الناقصة في النفس البشرية يمكن تغييرها إلى حال أفضل وهذا واضح من أثر بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وكيف أن الله تعالى - برسالة محمد صلى الله عليه وسلم - غير أحوال أصحابه وصفاتهم من حال سيئ إلى حال حسن وهذا هو الهدف من التغيير.

والمبحث الرابع خُصَّص للحديث عن طرق مجاهدة النفس ومراحلها، وأول طرق المجاهدة اتهام النفس بالتقصير، ومعرفة كونها أمارة بالسوء وأنها إما أن تكون للإنسان قاطعة عن الله تعالى، أو تكون موصلة إليه. ذلك أن النفس حينما تكون أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات، ولكنها بعد مجاهدتها وتزكيتها تصبح راضية لا تُسرَّ إلا بالطاعات والموافقات والاستئناس بالله تعالى.

ثم على الإنسان أن يشتغل بإصلاح عيوب نفسه وعدم تتبع عيوب الآخرين، أما كيف يتم له إصلاح نفسه بالمجاهدة؟ فعليه أن يُحلِّي جوارحه السبعة بالطاعات والقربات، وأن يلزمها بترك المعاصي والشهوات. وقد أوضحنا ذلك في تفصيل البحث.

وأما الفصل الثاني، فضمَّنته مبحثين: الأول: أقوال العارفين والمرشدين وأحوالهم في المجاهدة الحقَّة، فللصوفية الصادقين والمربِّين المرشدين أقوال وأحوال في المجاهدة تدلُّ على صدق سلوكهم وتوجَّههم إلى الله تعالى، يدور معظمها على إمكانية حمل النفس على اجتناب الهوى ولزوم التقوى كقول أحدهم: من زين ظاهره بالمجاهدة، حسَّن الله سرائره بالمشاهدة، وقول آخر: المجاهدة هي فطم النفس وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، فهي بضاعة العباد ورأس مال الزهَاد ومدار صلاح النفوس وتذليلها وملاك تقوية الأرواح وتصنيتها ووصولها إلى حضرة ذي الجلال والإكرام.

أما أحوالهم في المجاهدة فقد اخترنا في البحث حال أحد أئمة التصوِّف وأقطابه وهو الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، وكيف أنه جعل المجاهدة بالإخلاص بالجهد والرياضة، والتخلُّص من يد الشهوة والغضب والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة، ودوام الانقطاع إلى الله ومداومة ذكره بالاسم المفرد (الله - الله - الله)، فإنه بذلك فضلاً عن تعطيل طريق الحواس - تتفتح له طاقة هائلة فيرى ما لا يراه في اليقظة.

وأما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد كرَّسْتُهُ لردِّ الشبهات عن المجاهدة، ذلك أن بعض المتسرِّعين يحكم على المجاهدة عند الصوفية بأنها جاءت متأثرة بما عند البراهمة والبوذيين، أو النصرى أو الفلاسفة أو غيرهم، وكل ذلك باطل لا أصل له، فالتصوِّف تطبيق لدين الله الحق الذي نزل على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، والفرق كبير بين المجاهدة المشروعة المقيدة بدين الله

تعالى، وبين المغالاة والانحراف وتحريم الحلال وتعذيب الجسد، كما عليه البوذيون الكافرون، وإنما سرت الشبهة إلى هؤلاء المتسرّعين لأنهم وجدوا في التصوف اهتماماً بتزكية النفوس وتربيتها، والارتقاء بها إلى سُمُو الأخلاق ومجاهدتها على أسس شرعية، وضمن نطاق الدين الحنيف، ففاسوا تلك الانحرافات على التصوف قياساً أعمى دون تمحيص.

إن هذا البحث المتواضع ما هو إلا لبنة بسيطة في موضوع طويل يتعلّق بأحد أسس هذا الدين وهو التّصوّف الإسلامي، وبجانب مهم من جوانب التصوف وسلوكه وهو المجاهدة في الله والله - وهي نابعة من دين الله الحنيف وهدى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه - فإن كنت وُفِّقْتُ فيه وأصبْتُ فذلك ما أرجوه وأسأل الله فيه الثواب، وإن كنتُ أخطأتُ فأسأل الله أن يتجاوز عني، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد:

للنفس البشرية صفات خبيثة وأخلاق مذمومة، وإزالتها فرض عين، فمن هذه الصفات والأخلاق الذميمة: الكفر والنفاق والكبر والعُجب والرياء والغرور والحقد والحسد وغير ذلك. ودليل تنقية القلب وتهذيب النفس منها على صفة الوجوب ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف: فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ (٤)، والفواحش الباطنة كما قال المفسرون هي الحقد والرياء والحسد والنفاق والغرور إلخ.

أما من السُنّة النبوية الكريمة، فكل الأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرياء والحسد... داخلية في ذلك وهي كثيرة جداً نذكر منها: ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله عزّ وجل أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك" (٥). وفيه نهى شديد عن الرياء.

٣- سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

٤- سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

٥- ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ)، السنن، ط/ دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢،

ص ٨٤، ٧.

ومما ورد في ذم الحسد - مثلاً - ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"، أو قال العشب" (٦).

ويقابل ذلك ما أثبت به النبي صلى الله عليه وسلم على صاحب السريرة النقية، والنفس المتحلية بالأخلاق الحسنة والمعاملة الطيبة. فمن ذلك ما روي عن عبد الله بن عمرو، قال: قيل يا رسول الله: "أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد" (٧).

ومن يقرأ حديث الإيمان الذي حوى فضائل الأعمال البدنية والقلبية يكون على بينة من أن الأمراض القلبية (٨) كافية لإحباط أعمال الإنسان ولو كانت كثيرة، وأن الإيمان يكمل بكمال شعبه، ويزداد بزيادتها أي بالصفات الحسنة، وينقص بنقصها.

ونص الحديث هو "الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (٩).

وخلاصة الأمر فإن العلماء أجمعوا على أن التخلص من الصفات المذمومة فرض عين - كما أسلفنا (١٠) - ولكن هذه الصفات الناقصة لا تزول بالأمان، ولا بمجرد الاطلاع على حكم تزكيتها، أو قراءة كتب الأخلاق والتصوف، بل لا بد لها بالإضافة إلى ذلك من مجاهدة وتزكية عملية، وفطم لنزواتها الجامعة وشهواتها العارمة (١١).

٦- أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ)، السنن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط/ المكتبة العصرية، بيروت، ج ٤، ص ٢٧٦.

٧- ابن ماجة، السنن، ١٤٠٩/٢ - ١٤١٠.

٨- يُقصد بالأمراض القلبية: الرذائل والمعاصي التي محلها القلب كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا...﴾ البقرة، الآية: ١٠.

٩- البخاري، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، الجامع الصحيح، ط: القاهرة، ١٩٥٨م، ج ١، ص ٩، وعنده "الإيمان بضع وستون.." "واللفظ لمسلم"، مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ)، الجامع الصحيح، باب الإيمان، مطابع دار التحرير بالقاهرة، ج ١، ص ٤٦.

١٠- قال ابن عابدين في حاشيته "إن الكبر والشح والحقد والغش والغضب والبغضاء والقسوة والمكر والمخادعة .. ونحوها مما هو مبين في ربيع المهلكات من الأحياء ... وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلامتها ... إلخ" رد المحتار على الدر المختار، ج ١، ص ٣١.

١١- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ط ٥، مطبعة النواعير، ١٩٩٢م، ص ٧٥.

وقد صدق البوصيري في ذلك عندما قال(١٢):

والنفس كالطِفْل إن تُهْمِلُهُ شَبَّ عَلَى

حَبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمَهُ يَنْفَطِمِ

فَاصْرَفْ هَوَاهَا وَحَاذِرْ أَنْ تُؤَلِّيَهُ

إِنْ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُضْمُ أَوْ يَصِمِ

فتأمل يا أخي ما للمجاهدة من أهمية للوصول إلى الله تبارك وتعالى.

الفصل الأول: تعريف المجاهدة ومشروعيتها وآثارها ومراحلها:

المبحث الأول: تعريف المجاهدة:

المجاهدة والجهاد: استفرغ الوسع في مدافعة العدو. والجهاد على ثلاثة أضرب: مجاهدة

العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس. وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي

اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (١٣) وقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١٤). وقول

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم" (١٥)، وقال بعضهم:

□ "مجاهدة النفس فطمها وحملها على خلاف هواها المذموم، وإلزامها تطبيق شرع الله أمراً ونهياً" (١٦).

وقال الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله: "الأصل في المجاهدة مخالفة الهوى، فيفطم

نفسه عن المألوفات والشهوات واللذات، ويحملها على خلاف ما تهوى في عموماً الأوقات، فإذا

انهمكت في الشهوات أجمها بلجام التقوى والخوف من الله عز وجل، فإذا حزنت ووقفت عند القيام

بالتطاعات والمواقفات ساقها بسيط الخوف، وخلاف الهوى ومنع الحظوظ" (١٧).

١٢- البوصيري، شرف الدين أبي عبد الله محمد البوصيري، بردة المديح، ط مكتبة الحضارة، دمشق، ١٩٥٨م، ص ٥.

١٣- سورة الحج، الآية: ٧٨.

١٤- سورة التوبة، الآية: ٤١.

١٥- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم حسين بن محمد (ت/ ٥٠٢هـ)، المفردات في غريب القرآن، مادة جهد، ص ١٠١.

١٦- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٧٥.

١٧- الكيلاني، عبد القادر بن موسى، الفنية لطالبي طريق الحق، مصر، ط ٣، ج ٢، ص ١٨٤.

المبحث الثاني: أدلة المجاهدة من الكتاب والسنة:

أما دليل المجاهدة من القرآن الكريم فقولته تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾ (١٨) وقد يقال إن المراد بالآية الكريمة جهاد الكفار، ولكن الآية كما تذكر كتب التفسير "مكية"، أي أنها نزلت قبل فرض القتال وتشريعه في المدينة المنورة، مما يدل على أن المقصود بها جهاد النفس، قال العلامة ابن جزّي في تفسير هذه الآية. يعني جهاد النفس. وقال المفسر العلامة القرطبي في تفسيره لهذه الآية، قال السدي وغيره: "إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال" (١٩). ومن المفسرين من يرى عمومية الجهاد والمجاهدة في الآية، وأن مجاهدة النفس داخلة فيها يقول الشيخ الصابوني في ذلك: "أي والذين جاهدوا النفس والشيطان والهوى والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا..." (٢٠).

أما دليل المجاهدة من السنة النبوية فما روي عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المجاهد من جاهد نفسه في الله" وفي رواية: "لله" (٢١).

المبحث الثالث: مجاهدة النفس وأثرها في تغيير الصفات الذمومة إلى محمودة:

الصفات الناقصة والذمومة في النفس الإنسانية يمكن تغييرها، لقابلية النفس البشرية على تغيير صفاتها من السيئة إلى الحسن، "وإلا لم تكن هناك فائدة من بعثة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ولا ضرورة لمن بعده من ورثته العلماء العاملين، والمرشدين المصلحين" (٢٢).

وفي هذا نختلف - كمسلمين - مع النظريات اللا إسلامية عن النفس البشرية، والتي تعزو الصفات الذميمة والحميدة إلى الفترات الأولى من عمر الإنسان، وأن هذه الصفات المكتسبة لدى الإنسان في فترة ما قبل المراهقة "خاصة" لا يمكن تغييرها، لأنها دخلت فيما يسمى بالدور الكامن (latency stage)، وقد تبني مثل هذه النظريات كل من فرويد وأتباعه مثل جونس، وكريتون ملر وغيرهم (٢٣).

١٨- سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

١٩- عبد القادر عيسى، حقائق، حاشية، ص ٧٥.

٢٠- الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٢، ص ٤٦٨.

٢١- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٧٦ (نقلا عن جامع الإمام الترمذي، كتاب فضائل الجهاد).

٢٢- المصدر نفسه، ص ٧٦.

٢٣- نقلا عن القوصي، د. عبد العزيز، أسس الصحة النفسية، ط: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩م،

ص ١٥٣-١٥٤.

يقول الشيخ عبد القادر عيسى في إمكانية تغيير الصفات: "إذا كان كثيراً من سباع الطيور والبهائم قد أمكن ترويضها، وتبديل كثير من صفاتها، فالإنسان الذي كرمه الله تعالى وخلقه في أحسن تقويم من باب أولى" (٢٤). وللإمام الغزالي رحمه الله تعالى كلام جميل في إمكان تغيير الصفات الذميمة إلى حميدة في الإنسان، يقول - رحمه الله: "واعلم أن الشهوة والغضب اللتان في البهائم جعلتا أيضاً في ابن آدم، ولكنه أعطي شيئاً آخر زيادةً عليها للشرف والكمال، وبذلك تحصل له معرفة الله تعالى وجملة عجائب صنعه، وبه يخلص نفسه من يد الشهوة والغضب وتحصل له صفات الملائكة" (٢٥).

وتغيير الصفات كما نرى من ظاهر نصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء إنما يكون بالمجاهدة، "وليس المراد من مجاهدة النفس استئصال صفاتها، بل المراد تصعيدها من سيء إلى حسن، وتسييرها على مراد الله تعالى وابتغاء مرضاته" (٢٦)، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في ذلك: "الشهوة والغضب ينبغي أن يكونا تحت يد العقل فلا يفعلون شيئاً إلا بأمره، فإن فعل ذلك صح له حسن الأخلاق وهي صفات الملائكة وهي بذر السعادة، وإن عمل بخلاف ذلك فخدم الشهوة والغضب صح له الأخلاق القبيحة وهي صفات الشياطين وهي بذر الشقاء.." (٢٧).

وأحياناً تكون الصفات الناقصة "المذمومة" صفات حميدة إذا ما تطلبتها ظروف معينة.. فصفة الغضب مذمومة حين يغضب المرء لنفسه، أما إذا غضب لله تعالى فعندها يصبح الغضب ممدوحاً، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يغضب إذا انتهكت حرمة الله أو عطل حد من حدوده، ولكنه حين أؤذي في الله وضرب وأدميت قدماه الشريفتان يوم الطائف، لم يغضب لنفسه بل دعا لمن آذوه بالهداية والتمس لهم العذر فقال: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون" (٢٨).

٢٤- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٦.

٢٥- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، المنقذ من الضلال، ومعه كيمياء السعادة، ط: مكتبة الجندي، مصر، ص ٨٦.

٢٦- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٧٦.

٢٧- الغزالي، كيمياء السعادة، مطبوع مع المنقذ من الضلال، ص ٨٤.

٢٨- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٦-٧٧.

وكذلك صفة الكبر مذمومة حين يتكبر المسلم على إخوته المسلمين، أما حين يتكبر على المتكبرين الكافرين فتصبح هذه الصفة محمودة لأنها في سبيل الله وضمن حدود شرعه... (٢٩). وكل ذلك إنما يتم بالمجاهدة المشروعة التي يلتمس الإنسان من وراثتها الوصول إلى أعلى الكمالات الروحية والسمو النفسي والمعرفة الحقّة بالله سبحانه وتعالى.

المبحث الرابع: طرق المجاهدة ومراحلها:

أهم مرحلة من مراحل المجاهدة عدم رضى المرء عن نفسه واتهامها بالتقصير، وإيمانه بوصفها الذي أخبر عنه خالقها ومبدعها: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٣٠) وحقيقة النفس الأمارة بالسوء أنها تمثل الحدّ السلبي للنفس الشهوانية، وهي من ثمّ مثلها في أنها شديدة الإلحاح على الإنسان، تنتهز من النفس العاقلة أدنى تهاون فتتنشط عندئذ وتورط الإنسان في فعل الشرور واقتراف الذنوب.. (٣١).

ثم على الإنسان أن يعلم أن النفس من أكبر القواطع عن الله تعالى. وقد قيل إن القواطع عن الله تعالى أربعة: " النفس، والدنيا، والشيطان والخلق. أما عداوة النفس والشيطان فظاهرة، وأما الخلق فملاحظة مدحهم وذمهم تعرقل سير السالك إلى ربه. وأما الدنيا فالاهتمام بها وانشغال القلب بتقلباتها قاطع كبير عن الله تعالى، ففي حالة الفقر تكثر هموم المرء فتشغله عن الله تعالى، وفي حالة الغنى ينشغل بزینتها وزخرفها عن الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَىٰ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (٣٢)، أما إذا أخرج حبها من قلبه فإنها لا تضره.. (٣٣) وقد زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا فقال: "ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبه هذه في اليمّ فلينظر بما ترجع وأشار بالسبابة" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة" (٣٤).

-
- ٢٩- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٦-٧٧.
- ٣٠- سورة يوسف، الآية: ٥٣.
- ٣١- د. عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية في النفس الإنسانية، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٧٩.
- ٣٢- سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.
- ٣٣- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٧٧، هامش ٣.
- ٣٤- نص الحديثين الشريفيين عن: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، كتاب الحقائق في علم الحديث والزهديات، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م، ج ٢، ص ١٤٥.

فإذا ما علم المؤمن أن النفس قد تميل إلى جانب الدنيا وهي قاطعة عن الله تعالى فإن النفس في نفس الوقت هي أعظم موصل إليه تعالى، وذلك أن النفس حينما تكون أمارة بالسوء لا تتلذذ إلا بالمعاصي والمخالفات، ولكنها بعد مجاهدتها وتزكيتها، تصبح راضية مرضية لا تسر إلا بالطاعات والموافقة والاستئناس بالله تعالى(٣٥).

والواقع أن النفس البشرية وفقا للنظرة الإسلامية تمرّ بمراحل وأطوار من كونها أمارة بالسوء إلى أن تصل إلى درجة الراضية المرضية، وذلك بالمجاهدة المستمرة. وأهم مرحلة تمرّ بها هي "النفس اللوامة"، والتقابل واضح بين النفس اللوامة والنفس الأمارة بالسوء، فإنهما يقفان على طرفي نقيض، طرف يجذب الإنسان إلى حضيض الخسة، وآخر يقف له بالمرصاد، يسجل عليه أخطاه ويؤنبه على أفعال السوء التي يرتكبها، سواء بالفعل أو بالنية المبيتة، ولأن الجانب من النفس هو الجانب النظيف الشريف الرادع للنفس الأمارة بالسوء، فقد أقسم الله تعالى به، بعد أن أقسم بيوم القيامة(٣٦). قال تعالى: ﴿لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ (٣٧).

وهذه المرحلة المهمة في مجاهدة النفس، وذلك أن الإنسان إذا اشتغل بعيوب نفسه ولانها على ما تفعل من النقائص، لم يعد عنده متسع من الوقت للانشغال بعيوب الناس.. ولذلك قالوا: "لا تر عيب غيرك، ما دام فيك عيب، والعبد لا يخلو من عيب أبداً"(٣٨). فإذا عرف المسلم ذلك أقبل على نفسه يفظمها عن شهواتها المنحرفة وعاداتها الناقصة، ويجاهدها بإلزامها بتطبيق الطاعات والقربات. وفي بادئ الأمر يتخلى عن المعاصي التي تتعلق بجوارحه السبعة. وهي: اللسان والعينان والأذنان واليدين والرجلان والبطن والفرج، فمن معاصي اللسان الغيبة والنميمة والكذب والفحش. ومن معاصي الأذنين: سماع الغيبة والنميمة والأعاني الفاحشة وآلات اللهو والمجون، ومن معاصي العينين: النظر للنساء الأجنبية وعورات الرجال، ومن معاصي اليدين: إيذاء المسلمين وقتلهم، وأخذ أموالهم بالباطل، ومصافحة النساء الأجنبية، ومن معاصي الرجلين: المشي إلى محلات المنكرات والفجور. ومن معاصي البطن: أكل المال الحرام، وأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر. ومن معاصي الفرج: الزنا واللواط(٣٩).

٣٥- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٧.

٣٦- د. عز الدين إسماعيل، نصوص قرآنية، ص ١٨١.

٣٧- سورة القيامة، الآية: ١ - ٢.

٣٨- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٨ وهامش ١ في الحاشية.

٣٩- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٨ وهامش ١ في الحاشية.

ثم يُحلى هذه الجوارح بالطاعات المناسبة لكل منها، فمن طاعات اللسان قراءة القرآن الكريم وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن طاعات الأذنين: سماع القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والنصائح والمواعظ. ومن طاعات العينين: النظر التأملي لآيات الله في الكون، والنظر إلى الكعبة المشرفة، وإلى وجوه العلماء والصالحين، ومن طاعات اليدين: إعطاء الصدقات، وأعمال الخير عامة، ومصافحة المؤمنين. ومن طاعات الرجلين: المشي إلى المساجد وإلى مجالس العلم، وعبادة المرضى، والإصلاح بين الناس. ومن طاعات البطن: تناول الطعام الحلال بنية التقوى على طاعة الله تعالى. ومن طاعات الفرج: النكاح المشروع بغية الإحصان وتكثير النسل^(٤٠).

ذلك أن الجوارح السبعة هي منافذ على القلب، إما أن تصبّ عليه ظلمات المعاصي فتكدره وتمرضه، وإما أن تدخل عليه أنوار الطاعات فتشبعه وتنوره. يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: "وأول أسّ المجاهدة أن تعرف عسكر القلب، لأن الإنسان إذا لم يعرف العسكر لم يصح له الجهاد. وللقلب عساكر.. ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا من طريق الحواس، والحواس من القلب، والقالب مركبه"^(٤١).

ثم ينتقل في المجاهدة إلى الصفات الباطنة فيبدل صفاته الناقصة كالكبر والرياء والغضب بصفات كاملة كالتواضع والإخلاص والحلم^(٤٢). ولا يتم ذلك إلا بدوام المراقبة - وهي التي أشار إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك - فالمراقبة علم العبد باطلاع الربّ سبحانه عليه، واستدامته لهذا العلم مراقبة لربّه، وهذا هو أصل كل خير، وإنما يصل إلى هذه الرتبة بعد المحاسبة وإصلاح حاله في الوقت، ولزوم طريق الحق وإحسان مراعاة القلب بينه وبين الله عزّ وجل، وحفظ الأنفاس مع الله تعالى، فيعلم أن الله تعالى عليه رقيب ومن قلبه قريب يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله..."^(٤٣).

٤٠- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٧٨ وهامش ٢ في الحاشية.

٤١- الغزالي، كيمياء السعادة، مطبوع مع المنقذ من الضلال، بتحقيق: محمد محمد جابر، ص ٧٩.

٤٢- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوّف، ص ٧٩.

٤٣- الكيلاني، الغنية، ج ٢، ص ١٨٤.

الفصل الثاني: العلماء العارفون والمرشدون والمجاهدة ورد الشبهات عنها.

المبحث الأول: أقوال وأحوال العارفين والمرشدين في المجاهدة:

للعلماء العارفين والمشايخ وأهل التصوّف الصادقين، أقوال هادفة في المجاهدة ولهم معها أحوال، من يقف عليها ويتأملها يجد فيها حقيقة موقفهم مع المجاهدة، ويدل على حسن سلوكهم، وسلامة توجههم إلى الله تعالى، نختار بعضاً منها من القدماء والمحدثين:

قال أبو علي الدقاق رحمه الله: من زينّ ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة، قال الله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٤٤). وكل من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من الطريقة شمة (٤٥). وقال أبو عثمان المغربي رحمه الله: "من ظن أنه يفتح له بهذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها بغير لزوم المجاهدة فهو في غلط" (٤٦). وعن الجنيد البغدادي قال: سمعت السري السقطي رحمه الله يقول: "يا معشر الشباب جدّوا قبل أن تبلغوا مبلغ فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت، وكان في ذلك الوقت لا يلحقه الشباب في العبادة" (٤٧). وقال الحسن القرّاز رحمه الله بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء: أن لا يأكل إلا عند الفاقة، ولا ينام إلا عند الغلبة، ولا يتكلّم إلا عند الضرورة (٤٨). وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: "لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات: الأولى: يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدّة. والثانية: يغلق باب العزّ ويفتح باب الذل. والثالثة: يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد. والرابعة: يغلق باب النوم ويفتح باب السهر. والخامسة: يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر. والسادسة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت (٤٩).

٤٤- سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

٤٥- الكيلاني، الغنية، ج ٢، ص ١٨٧، أيضاً القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (٤٦٥هـ)، الرسالة القشيرية، ط: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٣٠هـ، ص ٤٨.

٤٦- الكيلاني، الغنية، ج ٢، ص ١٨٧، وأيضاً القشيرية، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (٤٦٥هـ)، الرسالة القشيرية، ط: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٣٠هـ، ص ٤٨.

٤٧- الكيلاني، الغنية، ج ٢، ص ١٨٢، القشيري، الرسالة، ص ٤٨.

٤٨- الكيلاني، الغنية، ج ٢، ص ١٨٢.

٤٩- الكيلاني، الغنية، ج ٢، ص ١٨٢.

وقال الإمام البركوي رحمه الله: "المجاهدة: هي فطم النفس وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، فهي بضاعة العباد ورأس مال الزهاد، ومدار صلاح النفوس وتذليلها، وملاك تقوية الأرواح وتصفيتها ووصولها إلى حضرة ذي الجلال والإكرام، فعليك أيها السالك بالتشمير في منع النفس عن الهوى، وحملها على المجاهدة إن شئت من الله الهدى، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (٥٠)، وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ (٥١)(٥٢). وقال ابن عجيبة رحمه الله: "لا بد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهي مظهر ومجلاة للنهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جاداً في طلب الحق باذلاً نفسه وفلسه وروحه وعزته وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقيق بالعبودية، والقيام بوظائف الربوبية، علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصراً علمنا قصوره عما هنالك..." (٥٣). وأقوالهم في هذا الباب كثيرة وإنما آثرنا الاقتصار على بعضها وفيها إيضاح لا بأس به للمجاهدة الصحيحة الهادفة التي توصل إلى النهاية الصحيحة.

وأما أحوال القوم مع المجاهدة فنختار جانباً من حال أحد أئمتهم وأقطابهم وهو الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ففي كتابه كيمياء السعادة يتحدث عن معرفة النفس وعجائب القلب إلى أن يصل إلى وصف طريقته في المجاهدة فيقول: "ولا تظن أن هذه الطاقة تنفتح بالنوم والموت فقط، بل تنفتح باليقظة لمن أخلص الجهاد والرياضة، وتخلص من يد الشهوة والغضب، والأخلاق القبيحة والأعمال الرديئة، فإذا جلس في مكان خالٍ وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعته، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت وقال دائماً الله الله بقلبه دون لسانه إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئاً إلا الله سبحانه وتعالى، انفتحت له تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء، والصور الحسننة الجميلة الجليلة، وانكشف له ملكوت السموات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه ولا وصفه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها". وقال الله عز وجل:

٥٠- سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

٥١- سورة العنكبوت، الآية: ٦.

٥٢- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٨١ عن كتاب "الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية" ج ١، ص ٤٥٥.

٥٣- المصدر نفسه، ص ٨١، عن إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج ٢، ص ٣٧٠.

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (٥٤)، لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها كانت من هذا الطريق لا من طريق الحواس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (٥٥). معناه الانقطاع عن كل شيء، وتطهير القلب من كل شيء، والابتغال إليه سبحانه وتعالى بالكلية، وهو طريق الصوفية في هذا الزمان وهذه الطريقة لا تفهم إلا بالتجربة، وإن لم تحصل بالذوق لم تحصل بالتعليم ومن لم يبصر لم يصدق (٥٦).

وقد علق الشيخ محمد محمد جابر من علماء الأزهر الشريف على طريقة مجاهدة الإمام الغزالي هذه التي ذكرها الإمام عن نفسه والتي أوردناها هنا تعليقا لطيفاً أنقله هنا بنصه: قال: "يشير رضي الله عنه إلى طريقته هو التي وصل بها إلى الله وهي تتلخص في المجاهدة من سهر وقلة أكل وعزلة عن الناس، وذكر بالاسم المفرد مستحضراً معنى الاسم "الله" الذي هو علم على الذات" وجالسا بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، واضعاً فاك على ثدي النبوة، لن تظلم عن ثديه صلى الله عليه وسلم حتى تلقى حبيبك هذه طريقة الغزالي وهي طريق الصوفية في القرون الأولى إلى عهد الغزالي .." (٥٧).

المبحث الثاني: رد الشبهات حول المجاهدة:

قد يقول البعض: إن رجال التصوف بمجاهداتهم يحرمون ما أحل الله من أنواع اللذائذ والمتع، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (٥٨)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٩). فنقول: إن رجال التصوف لم يجعلوا الحلال حراماً، إذ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله، ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرض عين، وأن للنفس أخلاقاً سيئة وتعلقات شهوانية تُوصِل صاحبها إلى الردى، وتُعيِّقه عن الترقى في مدارج الكمال، وجدوا لزاماً عليهم أن

٥٤- سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

٥٥- سورة المزمل، الآية: ٨.

٥٦- الغزالي، كيمياء السعادة (مع المنقذ)، ص ٨٨-٨٩.

٥٧- الغزالي، كيمياء السعادة، ص ٨٩، الهامش (٢) تعليق: الشيخ محمد جابر.

٥٨- سورة الأعراف، الآية: ٣١.

٥٩- سورة المائدة، الآية: ٨٧.

يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى^(٦٠)، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٦١).

وفي هذا المعنى يقول الصوفي الكبير الحكيم الترمذي رحمه الله رداً على هذه الشبهة، وجواباً لمن احتج بالآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ...﴾ الآية أعلاه. يقول: "فهذا الاحتجاج تعنيف ومن القول تحريف، لأننا لم نُرد بهذا التحريم، ولكننا أردنا تأديب النفس حتى تأخذ الآداب، وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك، ألا ترى إلى قوله جلّ وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٦٢). فالبغي في الشيء الحلال حرام، والفخر حرام والمباهاة حرام والرياء حرام والسرف حرام، وإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبيها حتى فسد القلب، فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق تريد بذلك تغنياً أو مباهاة أو رياء، علمت أنها خلطت حراماً بحلال فضيحت الشكر، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر، فلما رأيت سوء أدبها منعتها، حتى إذا ذلت وانقمعت، ورآني ربي مجاهداً في ذاته حق جهاده، هداني سبيله كما وعد الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^{(٦٣)(٦٤)}.

ومن جهل بعض الناس بحقيقة المجاهدة لله تعالى زعمهم أن التصوف في المجاهدة ينحدر من أصل بوذي أو براهمي، أو إنه يلتقي ببعض الانحرافات الدينية في النصرانية وغيرها التي تعتبر تعذيب الجسد طريقاً إلى إشراق الروح وانطلاقها. ومنهم من جعل التصوف امتداداً لنزعة الرهينة التي ظهرت في ثلاثة رهط سألوا عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا عنها كأنهم تقالوها، فقال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثاني: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام. وقال الثالث: أما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج. ولما عرض أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم صح لهم أفكارهم، وردهم إلى الصراط المستقيم والنهج القويم^(٦٥).

٦٠- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٨٣.

٦١- سورة النازعات، الآية: ٤٠-٤١.

٦٢- سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

٦٣- سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

٦٤- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٨٣ عن كتاب الرياضة وأدب النفس، للترمذي، ص ١٢٤.

٦٥- حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم مشهور، المصدر أعلاه، ص ٨٤.

يقول الشيخ عبد القادر عيسى مجيباً على ذلك إن التصوّف لم يكن في يوم من الأيام شرعة مستقلة ولا ديناً جديداً، ولكنه تطبيق عملي لدين الله تعالى، واقتداء كامل برسوله عليه الصلاة والسلام. وإنما سرت الشبهة على هؤلاء المتسرّعين لأنهم وجدوا في التصوف اهتماماً بتزكية النفوس وتربيتها، وتصعيدها ومجاهدتها على أسس شرعية، وضمن نطاق الدين الحنيف، فقاوسوا تلك الانحرافات الدينية على التصوف قياساً أعمى دون تمحيص أو تمييز^(٦٦). والفرق كبير بين المجاهدة المشروعة المقيدة بدين الله تعالى وبين المغالاة والانحراف، وتحريم الحلال وتعذيب الجسد، كما عليه البوذيون الكافرون^(٦٧).

وللشيخ إسماعيل حقي البروسوي قول لطيف في التفريق بين المجاهدة في الإسلام، وبين ما عليه البراهمة وغيرهم من الفلاسفة جاء فيه "ولو قال قائل للبراهمة والفلاسفة أنهم يجاهدون النفس حق جهادها ولا تورث لهم المشاهدة، قلنا لهم: لأنهم قالوا بالمجاهدات فجاهدوا، وتركوا الشرط الأعظم منها وهو قوله تعالى "فيها" أي خالصاً لنا، وهم جاهدوا في الهوى والدنيا والخلق والرياء والسمعة والشهرة وطلب الرياسة والعلو في الأرض والتكبر على الخلق، فأما من جاهد في الله جاهد أولاً وبترك المحرمات ثم بترك الشبهات ثم بترك الفضلات ثم بقطع العلاقات تزكية للنفس"، وهو في ذلك يشرح قول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٦٨)(٦٩).

فشتان بين مسلم مجاهد في الله تعالى وإلى الله تعالى، وبين كافر لا يؤمن بالله تعالى ولا يدين دين الحق. وإذا وجد في تاريخ التصوف من حرّم الحلال أو قام بتعذيب الجسد على غرار الانحرافات الدينية السابقة فهو مبتدع ومبتدع عن طريق التصوف الحق. لذا ينبغي التفريق بين التصوف والصوفي، فليس الصوفي بانحرافه ممثلاً للتصوف. كما أن المسلم بانحرافه لا يمثل الإسلام، والمعتضون لم يفرّقوا بين الصوفي والتصوف، وبين الإسلام والمسلم فجعلوا تلازماً بينهما، فوقعوا في الكاملين قياساً على المنحرفين^(٧٠).

-
- ٦٦- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٨٤-٨٥.
 ٦٧- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٨٤-٨٥.
 ٦٨- سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.
 ٦٩- البروسوي، الشيخ إسماعيل حقي، تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، ط ١، الدار الوطنية للنشر والتوزيع والاعلان، بغداد، ١٤٠٩هـ/ ١٩٩٠م، ج ٣، ص ١٧٦.
 ٧٠- عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، ص ٨٥.

إن منتهى آمال السالكين ترقية نفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا إلى مطلوبهم، والنفس تترقى بالمجاهدة والرياضة، من كونها أمارة إلى كونها لؤامة وملهمة وراضية ومرضية ومطمئنة^(٧١). فالمجاهدة ضرورية للسالك في جميع مراحل سيره إلى الله تعالى، ولا تنتهي إلا بالوصول إلى درجة العصمة، وهذه لا تكون إلا للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، والسالك الذي لمجاهدة له لا يسير له ولا محبة له^(٧٢). وخلاصة الأمر أن المجاهدة أصل من أصول طريق الصوفية، وقد قالوا: من حقق الأصول نال الوصول، ومن ترك الأصول حرم الوصول. وقالوا أيضاً: من لم تكن له بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة والبدايات تدل على النهايات^(٧٣). وقالوا: من لم تكن له في بدايته قومة، لم يكن له في نهايته جلسة^(٧٤).

ملحق رقم (١): الخصال العشر لأهل المجاهدة والمحاسبة وأولي العزم

وذلك كما ذكرها الشيخ عبد القادر الكيلاني رحمه الله تعالى "في الغنية"^(٧٥). قال الشيخ رحمه الله تعالى: ولأهل المجاهدة والمحاسبة وأولي العزم عشر خصال جربوها لأنفسهم فإذا أقاموها وأحكموها بإذن الله وصلوا إلى المنازل الشريفة.

أولها: أن لا يحلف العبد بالله تعالى صادقاً ولا كاذباً، عامداً ولا ساهياً، لأن إذا أحكم ذلك من نفسه وعود لسانه، رفعه ذلك أن يترك الحلف ساهياً وعماداً. فإذا اعتاد ذلك فتح الله له باباً من أنواره يعرف منفعة ذلك في قلبه وزيادة في بدنه ورفعته في درجته وقوة في عزمه وفي بصره.

والثانية: أن يجتنب الكذب هازلاً وجاداً، لأنه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه واعتاده لسانه، شرح الله به صدره وصفى به علمه، حتى كأنه لا يعرف الكذب، وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعييره به في نفسه، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواباً.

والثالثة: أن يحذر أن يعدّ أحداً شيئاً فيخلفه إياه وهو يقدر عليه إلا من عذر بين، أو يقطع العدة البتة، فإنه أقوى لأمره وأقصد لطريقه، لأن الخلف من الكذب، فإذا فعل ذلك فتح له باب السخاء ودرجة الحياء وأعطى مودة في الصادقين ورفعته عند الله جل ثناؤه.

٧١- المصدر نفسه، ص ٨٥، أيضاً: عزالدين إسماعيل، نصوص قرآنية عن النفس، ص ١٨١.

٧٢- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٨٥-٨٧.

٧٣- عبد القادر عيسى، حقائق، ص ٨٥-٨٧.

٧٤- الكيلاني، الشيخ عبد القادر، الغنية، ج ٢، ص ١٨٢.

٧٥- ج ٢، ص ١٨٧-١٨٩، وما بعدها.

والرابعة: يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق، أو يؤذي ذرة فما فوقها، لأنها من أخلاق الأبرار والصادقين، وله عاقبة حسنة في حفظ الله إياه في الدنيا مع ما يدخر له عنده من الدرجات ويستنقذه من مصارع الهلكة ويسلمه من الخلق ويرزقه رحمة العباد والقرب منه عز وجل.

والخامسة: يجتنب أن يدعو على أحد من الخلق وإن ظلمه، فلا يقطعه بلسانه ولا يكافئه بفعاله ويحتمل ذلك لله تبارك وتعالى، ولا يكافئه بقول ولا فعل، فإن هذه الخصلة ترفع صاحبها في الدرجات العُلا، إذا تأدب بها ينال منزلة شريفة في الدنيا والآخرة، والحب والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد وإجابة الدعوة والعلو في الخير والعز في الدنيا في قلوب المؤمنين.

والسادسة: أن لا يقطع الشهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق، فإنه أقرب للرحمة وأعلى في الدرجة، وهي تمام السنّة، وأبعد عن القول الدخول في علم الله سبحانه وتعالى، وأبعد من مقت الله عز وجل، وأقرب إلى رضا الله تعالى ورحمته.

والسابعة: يجتنب النظر والهَم إلى شيء من المعاصي ظاهراً وباطناً ويكف عنها جوارحه، فإن ذلك من أسرع الأعمال ثواباً للقلب والجوارح في عاجل الدنيا، مع ما يدخر الله تعالى له من خير الآخرة.

والثامنة: يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة صغيرة ولا كثيرة، بل يرفع مؤنته من الخلق أجمعين، مما احتاج إليه واستغنى عنه، فإن ذلك تمام عزة العابدين وشرف المتقين، وما يقوى به على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويكون الخلق عنده أجمعون بمنزلة واحدة في الحق سواء.

والتاسعة: ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين لا يطمع نفسه في شيء مما في أيديهم، فإنه العز الأكبر والغنى الخالص والملك العظيم والفخر الجليل واليقين الصادق والتوكل الشافي الصحيح، وهو باب من أبواب الثقة بالله عز وجل وهو باب من أبواب الزهد وبه ينال الورع ويكمل نفسه، وهو من علامات المنقطعين إلى الله تبارك وتعالى.

والخصلة العاشرة: التواضع، لأنه بذلك يَشِيدُ مَجْدَ درجته وتعلو منزلته، ويستكمل العز والرفعة عند الله تعالى وعند الخلق، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة، وهذه الخصلة أصل الطاعات كلها وفرعها وكمالها، وبها يدرك العبد منازل الصالحين الراضين عن الله تعالى في الصرّاء والسرّاء، وهي كمال التقوى، وهي أن لا يلقي العبد أحداً من الناس، إلا رأى له الفضل عليه، ويقول عسى أن يكون عند الله خيراً منّي وأرفع درجة.

ملحق رقم (٢): مراحل المجاهدة عند الصوفية والمقامات عندهم

وهي كما أباؤها لي الشيخ عدا ب محمود الحمش النعيمي "جزاه الله خيراً":

كتب الشيخ مذكرة لي في هذا الباب جاء فيها:

المجاهدة عند الصوفية على ثلاث مراحل:

- مجاهدة النفس حتى تستقيم.

- ثم مجاهدة النفس حتى تقوم في مرتبة الإحسان "الشهود".

- ثم مجاهدة النفس حتى تقوم في مرتبة الفناء.

والفناء في لغة التصوّف نبذ الذات كلياً والتعلق بالمحبوب تبارك وتعالى. حتى لا يعود الإنسان تَصْرُفُهُ عن محبوبه أية أَعْيَار. وهو الذي يظن البعض أنه "وحدة الوجود"، ووحدة الوجود مذهب مادي بغيض والقائل به كافر بالإجماع، إنما الصوفية يريدون به وحدة الشهود. والمجاهدة بمراتبها الثلاث تعني المقامات العشر بعد مقام التوبة، فليس لديهم قبل مقام التوبة مجاهدة بالمعنى الصوفي، وإنما المجاهدة في هذه الدائرة "يعني قبل التوبة" هي إخراج حظوظ النفس والهوى والتوجّه إلى الله تعالى بالاستقامة.

والمقامات عندهم:

- مقام التوبة فلا يتصوّر بعدها معصية.

- ثم مقام التوكل على الله.

- ثم مقام المحبة لله.

- ثم مقام الأُنس بالله.

- ثم مقام الرضى بالله.

- ثم مقام الغيبة عن الذات.

- ثم مقام الفناء الأول في المحبوب ويسمونه أحياناً "الرؤية".

- ثم مقام الشهود: وهو شهود الحق، بمعنى أن الموجودات لا قيمة لها إلا بالحق.

- ثم مقام حقيقة الشهود، حيث لا يرى الإنسان شيئاً سوى الله، بمعنى أنه ما من شيء يستحق التنكير فيه: "وهو أيضاً الفناء الثاني".

- ثم مقام الحضرة، وهو مقام الشهود المطلق، والأُنس التام بالله تعالى. وهذه المقامات لها مسميات أخرى عند بعض الطرق.

* * * *